ثورات فكرية في تاريخ الأَزهر

د. أحمد الشرباصي

يذكر التاريخ أن الذي بنى الأزهر هو جوهر الصقلي قائد جيش المعز لدين الله الفاطمي، وقد أتم بناءه سنة إحدى وستين وثلاثمئة، وقد أريد للأزهر في أول الأمر أن يكون مقرًا للدعوة الفاطمية القائمة على المذهب الشيعي الإسماعيلي، وسموه (الأزهر) نسبة إلى (الزهراء) لقب فاطمة (ﷺ) التي ينتسب إليها الفاطميون، ولكن الله (تبارك وتعالى) أراد للأزهر بعد ذلك أن يكون معقلًا للدراسات الإسلامية والعناية بعلوم الدين واللغة.

ويذكر التاريخ أن الوزير يعقوب بن كلس الذي وقف على الأزهر أوقافًا، أشار سنة ٣٧٨هـ على العزيز بالله الخليفة الفاطمي أن يحول الأزهر من مسجد شيعي إلى جامعة لتدريس العلوم الدينية والعقلية، وكأن هذا الرأي قد كان إيذانًا بحدوث ثورات فكرية كثيرة في الأزهر، لا نستطيع هنا أن نرصدها على وجه الإحصاء ولكنا نستطيع أن نذكر طائفة منها قد تكون أقوى أثرًا من غيرها في تاريخ هذه الجامعة الإسلامية التليدة.

ولعل صلاح الدين الأيوبي كان أول من قام بثورة فكرية في الأزهر كان لها أثرها وخطرها، فقد كان صلاح الدين سنيًا، فعني بالقضاء على المذهب الشيعي من الأزهر ليغرس مكانه المذهب السني، ومهد لهذه الثورة

بأن أنشأ في سنة ٥٦٦هـ المدرسة الناصرية بجوار جامع عمرو لتدريس المذهب الشافعي، كما أنشأ المدرسة القمحية بجوار المدرسة السابقة لتدريس المذهب المالكي، وعزل صلاح الدين القضاة الشيعيين، وعين بدلهم قضاة شافعيين، وكان صلاح الدين شافعيًا، وبعد حين ضعف المذهب الشيعي وتقلص، ثم انقرض من مصر، وبعد أن كان اسم الخليفة الفاطمي يذكر على منبر الأزهر، صار يذكر اسم الخليفة العباسي. ولقد كان سقوط بغداد على أيدي التتار سنة ٦٥٦هـ سببًا في اتجاه كثير من العلماء والفقهاء إلى مصر، والاتصال بالأزهر، والتأثر به أو التأثير فيه، من أمثال ابن حجر العسقلاني، والمقريزي، والعيني، والبلقيني، وهم من رجال القرن التاسع الهجري، ومن أمثال السخاوي والسيوطي من رجال القرن العاشر وصار الأزهر هو الجامع الوحيد الذي يرتفع فيه صوت العلم والدين؛ وذلك لأكثر من سبب، فالتتار قد خربوا غيره من المساجد والمدارس والمعاهد، والحضارة العربية قد انقرضت من الأندلس (الفردوس المفقود)، والأزهر يوجد في مصر التي تتوسط العالم الإسلامي، والتي لا تبعد عن الحجاز منزل الوحي، ولها أهميتها الاقتصادية وصبغتها العربية، وهي مفتاح قارة أفريقيا، وفيها بذور من الثقافة العقلية المصرية القديمة.

وكان أن الأزهر خلال هذه القرون مجتلى الرأى العام في الشعب، ولذلك يروى أن قايتباي – وكان أكثر الناس رعاية للأزهر في القرن التاسع – كان يتخفى في زي رجل مغربي، ويذهب إلى الأزهر ويسمع ما يقوله الناس فيه.

وكان الناس ينظرون إلى الأزهر منذ القديم نظرة خاصة قائمة على

الإحساس العميق برسالته وخطير مكانته، يدل على ذلك أن الأمير بهادر استصدر سنة ٧٨٤هـ مرسومًا من السلطان برقوق، ينص على أن من مات من مجاوري الأزهر عن غير وارث شرعي، فإن تركته توزع على المجاورين في الأزهر، وقد نقش هذا المرسوم، وعلق على الباب البحري الكبير للأزهر.

مصر منبع العلوم والفضائل:

ولقد ظل الأزهري قوي الأثر في الحياة الاجتماعية والعقلية حتى الفتح العثماني لمصر سنة ٩٢٢هـ، ثم كان هذا الفتح سببًا في ضعف الحياة العلمية في مصر بعامة، وفي الأزهر بخاصة. وعلى الرغم من هذا الضعف ظل الأزهر يصارع ويقاوم، حيث لم يكن هناك معهد علمي سواه، وتألقت في سمائه نجوم رجال أعلام، من أمثال زكريا الأنصاري المتوفي سنة ٩٢٦هـ، وعبد الوهاب الشعراني المتوفي سنة ٩٧٣، وأحمد الدردير المتوفي سنة ١٢٠١هـ.

وإذا كان للحكم العثماني في مصر مساوئه الكثيرة، فإن هذا لم يمنع أن نجد أحد الولاة العثمانيين في مصر، يفتح الباب أمام ثورة علمية في الأزهر سنة ١١٦١هـ، وذلك الوالي هو (أحمد باشا) المعروف بكوروزير، وكان كما يذكر الجبرتي من أرباب الفضائل. وله رغبة في العلوم الرياضية، وكان الأزهر قد أهمل دراسة العلوم الرياضية، وكان شيخ الأزهر حينئذ هو الشيخ عبد الله الشبراوي.

فلما وصل ذلك الوالي إلى القاهرة واستقر بالقلعة، ذهب إليه وفد من علماء الأزهر لتهنئته، فدار بين الوالي والوفد حوار في مسائل من العلم، إلى أن دخل بهم في مسائل العلوم الرياضية، فأمسكوا عن الكلام فيها قائلين: نحن لا نعرف هذه العلوم، فعجب الوالي من ذلك أشد العجب، وكان الشيخ الشبراوي بين ذلك الوفد.

وذات يوم اجتمع الوالي بالشيخ الشبراوي وقال له: المسموع عندنا بالديار الرومية (التركية) أن مصر منبع العلوم والفضائل، ولقد كنت في غاية الشوق إلى المجيء إليها. فقال له الشيخ: هي كما سمعتم معدن العلوم والمعارف.

فقال الوالى: وأين هي وأنتم أعظم علمائها، وقد سألتكم عن مطلوبي من العلوم، فلم أجد عندكم منها شيئًا، وغاية تحصيلكم الفقه والمعقول (مثل علمي المنطق والتوحيد) والوسائل (مثل علمي النحو والصرف) ونبذتم المقاصد (يعني العلوم الرياضية)؟

فأجاب الشيخ: نحن لسنا أعظم علمائها، وإنما نحن المتصدرون لخدمتهم وقضاء حوائجهم عند أرباب الدولة والحكام، وغالب أهل الأزهر لا يشتغلون بشيء من العلوم الرياضية، إلا بقدر الحاجة الموصلة إلى علم الفرائض والمواريث، وذلك من فروض الكفاية، إذا قام به البعض سقط عن الباقين.

فقال الوالى: وأين أجد هذا البعض؟ فأجابه الشيخ: هم موجودون في بيوتهم يسعى إليهم، ثم دله الشيخ على حسن الجبرتي (والد الجبرتي المؤرخ). فطلبه الوالي وسأله عن تلك العلوم، فوجده يحسن معرفتها، فسر

به سرورًا عظيمًا، وصار يكثر من الاجتماع به؛ ليذاكره فيها، ويناقشه في مسائلها. ولم يكن الشيخ حسن الجبرتي هو الوحيد من رجال الأزهر الذين استوعبوا العلوم المختلفة، بل كان هناك مثل الشيخ أحمد الدمنهوري المولود سنة ١١٠١هـ والمتوفي سنة ١١٩٢، والذي تولى مشيخة الأزهر سنة ١١٨٢ وظل فيها ما يقرب من عشر سنوات، فقد ذكر في سند العلوم التي تلقاها ودرسها أنه درس كتبًا في علوم الحساب والجبر والمقابلة ووضع المزاول، وأسباب الأمراض وعلاجها، والحدود والدوائر والفلك، وعلم الهيئة والهندسة والمساحة والتكعيب، والممالك الطبيعية: الحيوان والنبات والمعادن، وعلم استنباط المياه، وعلم التشريح.. إلخ.

شعر يتوقد رقة وعذوبة:

ونستطيع أن نقول أن الشيخ عبد الله الشبراوي المتوفي سنة ١١٧١هـ والذي تولى مشيخة الأزهر عقب وفاة الشيخ الفيومي، قد أحدث في البيئة الأزهرية ثورة أدبية فنية عاطفية، بما نظمه من شعر غزلي عذب قد يستبعد كثير من الناس أن ينسبه إلى عالم أزهري، فضلًا عن عالم جليل يتولى مشيخة الأزهر في ذلك العهد السابق القديم، وحسبنا أن نذكر هنا أن هذا الشيخ هو صاحب تلك القصيدة المشهورة التي تتوقد رقة وعذوبة، والتي مطلعها:

وحقك أنت المنى والطلب ... وأنت المراد، وأنت الأرب

ولي فيك يا هاجري صبوة ... تحير في وصفها كل صب

فهل من السهل على الناس اليوم أن يصدقوا أن هذا الشعر الغزلي

قد صاغه منذ قرابة ثلاثة قرون عالم كبير تولى مشيخة الأزهر ما يقرب من عشر سنوات؟

هزة قوية:

وممن قاموا بثورة فكرية في الأزهر الشريف الشيخ حسن العطار، الذي ولد بالقاهرة سنة ١١٨٠هـ، وتعلم في الأزهر كغيره من الطلاب، وهام بالسياحة والرحلات شرقًا وغربًا في البلاد الإسلامية، وكان يشاهد ويتابع ويحاور ويجمع المعلومات. وحينما جاء الفرنسيون إلى مصر في حملتهم المشهورة اتصل العطار ببعض أفرادها، وأخذ يتعلم منهم وينقل عنهم، ويتشبه بهم في البحث والتنقيب العلمي والأدبي والاجتماعي. وفي سنة ١٢٤٦هـ تولى الشيخ العطار مشيخة الأزهر، فانتهزها فرصة ذهبية، وأخذ يهز الأزهر هزًا عنيفًا قويًا ليستيقظ، وتوفي عليه رحمة الله سنة ١٢٥٠هـ.

عاب العطار على الأزهريين أنهم يعرضون عن كتب المتقدمين وسعة أفقهم، ولا يستفيدون بتراث السلف القيم العظيم، فقال: "إن من تأمل في علمائنا السابقين يجد أنهم كانوا مع رسوخ قدمهم في العلوم الشرعية، لهم اطلاع واسع على غيرها من العلوم والكتب التي ألفت فيها، حتى كتب المخالفين في العقائد والفروع، وأعجب من ذلك تجاوزهم إلى النظر في كتب غير أهل الإسلام، من التوراة وغيرها من الكتب السماوية واليهودية والنصرانية، ثم هم – مع ذلك – ما أخلوا في تثقيف ألسنتهم برقائق الأشعار ولطائف المحاضرات".

ويعود الشيخ العطار في حاشيته على كتاب (جمع الجوامع) فيشيد

بأمر الكتب العلمية المترجمة إلى اللغة العربية، ويوحي بالعناية بها عند علماء الأزهر، فيقول:

"قد عربت كتب في زماننا من كتب الفرنجة، وفيها أعمال كثيرة وأفعال رقيقة، اطلعنا على بعضها، وقد استخرجت تلك الأعمال بواسطة الأصول الهندسية والعلوم الطبيعية، وفي تلك الكتب تكلم القوم في الصناعات الحربية والآلات النارية، ومهدوا فيها قواعد وأصولًا، حتى صار ذلك علمًا مستقلًا ذا فروع كثيرة، ومن سمت به همته إلى الاطلاع على غرائب المؤلفات، ظهرت له حقائق كثيرة من دقائق العلوم، وتنوعت فكرته – إن كانت سليمة – في رياض الفهوم.

ولقد تكلم المرحوم الشيخ عبد المتعال الصعيدي عن شخصية الشيخ العطار في كتابه (تاريخ الإصلاح في الأزهر)، ونقل نصوصًا له ونصوصًا قيلت عنه، ونوه بشخصيته، وتوسع الأستاذ مُحَمَّد عبد الغني حسن في كتابه عن الشيخ العطار، وذكر أنه قد امتاز بقراءته الواسعة العميقة للكتب العربية والمعربة في زمانه، ولم يختص بعلم معين، أو بفن بعينه من الفنون، ولكنه كان حريصًا على الإفادة من كل علم، وأنه كان من القلة الأزهرية التي أدركت ضرورة العلوم العقلية والطبيعية لنهوض البلاد، وكان صاحب فضل في التنبيه إلى قيمة العلوم الطبيعية، وإلى ضرورة إدخال العلوم العصرية في الأزهر، وإلى ضرورة الأخذ بالعلوم الطبيعية والأصول الهندسية، بجوار الرسوخ في العلوم الشرعية والأصول الفقهية، وأنه لا شك أن تحرر الشيخ العطار الفكري وبعده عن الجمود، ودعوته إلى الأخذ بالعلوم الحديثة، مع الاهتمام بالعلوم القديمة= قد جذب إليه الطلاب من

كل فج.

ويقول: "إذا كان حسن العطار لم يوفق في إصلاح الأزهر وبرامجه وخطط الدراسة فيه كما كان يريد، فإنه قد رزق حظًا كبيرًا من التوفيق في الدعوة إلى إصلاح التعليم بالبلاد كلها، فالمدارس العالية الفنية التي أنشئت بمصر في ذلك العهد – كالهندسة والطب والصيدلة والألسن – هي الاستجابة الحقيقية لدعوة الشيخ حسن العطار وتطلعاته ومناداته بحتمية تغيير الأحوال في البلاد، والكتب التي ترجمت بالمئات في عصر مُحَمَّد علي هي الصدى المحقق لأمنية الشيخ حسن العطار، حين رأى كتب الفرنسيين في الرياضة والعلوم والآداب".

وتأتي ثورة رفاعة رافع الطهطاوي:

ولد رفاعة في طهطا سنة ١٢١٦هـ، وتعلم بالأزهر حتى تخرج فيه، ثم اختير ليكون إمامًا لأول بعثة مصرية أرسلت إلى فرنسا سنة ١٨٢٥م، وهناك تعلم الفرنسية وأجادها، ودرس كثيرًا من العلوم ومنها التاريخ والجغرافيا، ثم عاد إلى مصر سنة ١٨٣١م، فكان رئيسًا لترجمة الكتب إلى العربية، وألف كتبًا في التربية والأخلاق، وأنشأ جريدة الوقائع المصرية، وأسس مدرسة الألسن، وتوفي سنة ١٨٧٣م – ١٢٩٠هـ.

ولقد كان الطهطاوي تلميذًا للثائر الأزهري الشيخ حسن العطار، وممن لازموه بصفة مستمرة، وحينما هم رفاعة بالسفر إلى فرنسا ذهب إلى شيخه ليتلقى نصيحته، فأوصاه بأن يقوم بتدوين كل ما يراه في تلك البلاد العجيبة، وأن يعني بدراسة العلوم التي نبغوا فيها، وكانت سبب قوتهم ونهضتهم، ليقوم بنقلها إلى اللغة العربية فيستفيد أهلها منها، وينهضوا كما

نهض أهل أوروبا.

ومع أن الوظائف التي تولاها الطهطاوي بعد عودته من فرنسا كانت خارج الأزهر، ومع أن صلته الوظيفية أو الرسمية انقطعت عن الأزهر، لم يترك تحريك عوامل الثورة الفكرية بين أبناء الأزهر، بل أخذ يتلمس الوسائل إلى بث أفكاره والأخذ بآرائه في إصلاح الأزهر والنهوض به، لأنه لم ينسَ أنه أحد بنيه؛ ولذلك نراه في كتابه (مناهج الألباب المصرية في مناهج الآداب العصرية) يتحدث عن فوائد العلوم الحديثة، ووجوب اغتراف الأزهريين من منابعها، ويقول عن أبناء الأزهر: "إن لهم اليد البيضاء في إتقان الأحكام الشرعية العملية والاعتقادية، وما يجب من العلوم الآلية، كعلوم العربية الاثني عشر، وكالمنطق وآداب البحث، والمقولات وعلم الأصول المعتبر، ولمثل هذا فليعمل العاملون، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون.

غير أن هذا وحده لا يفي للوطن بقضاء الوطر، والكامل يقبل الكمال كما هو متعارف عند أهل النظر، ومدار سلوك جادة الرشاد والإصابة، منوط – بعد ولي الأمر – بهذه العصابة، التي ينبغي أن تضيف إلى ما يجب عليها من نشر السنة الشريفة، ورفع أعلام الشريعة المنيفة، معرفة سائر المعارف البشرية المدنية، التي لها مدخل في تقديم الوطنية، من كل ما يحمد على تعلمه وتعليمه علماء الأمة المحمدية، فإنه بانضمامه إلى علوم الشريعة والأحكام، يكون من الأعمال الباقية، ويقتدي بهم في اتباعه الخاص والعام".

ويستحث الطهطاوي همم نجباء أهل الأزهر ليتمسكوا بدراسة العلوم

العصرية، ويقرر أنهم لو فعلوا ذلك لفازوا بدرجة الكمال، وانتظموا في سلك الأقدمين من فحول الرجال، وربما يتعللون بالاحتياج إلى مساعدة الحكومة، والحال أن الحكومة إنما تساعد من تلوح عليه علامات الرغبة والغيرة والاجتهاد، فعمل كل من الطرفين متوقف على عمل الآخر، فترجع المسألة دورية، والجواب عنها أن الحكومة قد ساعدت بتسهيل الوسائط والوسائل، ليغتنم فرصة ذلك كل طالب وسائل، وكل من سار على الدرب وصل، وإنما المكافأة على تمام العمل".

حدث خطير في تاريخ الأزهر:

وممن يمثلون ثورة فكرية في تاريخ الأزهر الشيخ مُحَمَّد عياد الطنطاوي، الذي ولد سنة ١٨١٠م، وكان أبوه من بلدة (محلة مرحوم) في محافظة الغربية، وقد حفظ صاحبنا القرآن الكريم في (الكتاب) كما حفظ فيه طائفة من المتون، وفي الثالثة عشرة من عمره دخل الأزهر، وتعلم فيه على يدي الشيخ إبراهيم الباجوري، والشيخ حسن العطار، والشيخ حسن السقا، والشيخ مُحَمَّد الأشموني. واستمر في الأزهر سنوات، ثم مات والده، فأخذ الابن يجمع بين الدراسة والتدريس، ليستعين بذلك على مطالب الحياة، ثم حصل على إجازة التدريس في ٢٠ من المحرم سنة ١٢٤٤هـ - ١٨٢٨م، وقام بالتدريس في الأزهر، حيث درس التفسير والمنطق، الشعر والأدب، وظل يقوم بالتدريس عشر سنوات، وتعلم في أثناء ذلك اللغة الفرنسية، ولم يقتصر على جوه الأزهري وبيئته الوطنية، بل خطا خطوة كان لها أثرها وخطرها في عهده، حيث قام بتدريس علوم اللغة العربية في المدرسة الإنجليزية بالقاهرة، وقام بتعليم الفرنجة في بلاده لغة العرب،

واتصل بالجالية الأوروبية بالقاهرة، وفيها عدد كبير من المهندسين والعسكريين والسياسيين، فأثر فيهم وتأثر بهم، وكان أستاذًا في اللغة العربية للمستشرق الفرنسي (فرنيل)، وقرأ معه ديوان الشاعر الشنفرى.

وكان من تلاميذ الشيخ الطنطاوي الأستاذ يوسف الأسير، والأستاذ إبراهيم مرزوق الشاعر الذي ترجم (أمثال لافونتين)، والشيخ عبد الهادي الإبياري، والشيخ عبد السلام الحلبي، وغيرهم من الأعلام. ومما يدل على مدى الثورة الفكرية التي أوقدها الشيخ الطنطاوي في بيئته أن نراه في سنة ١٨٢٧م، يقول وهو يدرس في الأزهر أنه لا يعرف أحدًا قبله قرأ في الأزهر ما قرأه من مقامات الحريري والمعلقات من شرح الزوزني. وفي سنة ١٨٤٠ دعاه قيصر روسيا ليقوم بتعليم اللغة العربية وآدابها في القسم التعليمي التابع لوزارة الخارجية بورسيا، فتعلم الشيخ الطنطاوي اللغة الروسية، وانتقل إلى هناك، فكان انتقاله حدثًا خطيرًا في تاريخ الأزهر، وفي صلة العرب بالروس، وكان سفره إلى روسيا يوم السبت ٢٤ من المحرم سنة ١٢٥٦هـ.

وقد وضع المستشرق الروسي (اغناطيوس كراتشوفسكي) كتابًا عن حياة الشيخ مُحَمَّد عياد الطنطاوي، وترجمته إلى العربية سيدة فلسطينية هي (كلثوم عودة)، وراجع الترجمة وعلق عليها الأستاذان عبد الحميد حسن ومُحَمَّد عبد الغني حسن، ونشر الترجمة المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية سنة ١٩٦٤م. ويقول (كراتشوفسكي) في كتابه هذا: "كان رحيل الطنطاوي إلى ورسيا حدثًا كبيرًا، ليس في حياته فحسب، بل وفي الاستشراق الروسي أيضًا، حتى إن الصحافة الواسعة

أولته انتباهًا كبيرًا".

وهذا هو العالم (سافيليف) الذي صار فيما بعد من علماء الآثار المشهورين وأحد مؤسسي جمعية الآثار في روسيا، يكتب رسالة إلى أحد أصدقائه في سنة ١٨٤٠ يصور فيها تأثير الشيخ الطنطاوي في الجو الروسي وغيره فيقول: "أنت تسألني من هذا الرجل الجميل في لباس شرقي، وعمامة بيضاء، وله لحية سوداء كجناح الغراب، وعينان تشعان بإشعاع غريب، على وجهه سمة الذكاء، وقد لفحت الشمس بشرته، وليست بالطبع شمس بلادنا الشمالية الباردة. لقد رأيته مرتين يسير بخطوات وئيدة على بلاط شارع (نفسكي) في جهته المضاءة بالشمس، ولقد لفت هذا الرجل نظري، كما لفت أنظار زائري هذا الشارع في أيام الجو الطيب".

وفي القاهرة، وفي الجامع الأزهر، مدرسة من أحسن المدارس، وهناك عند الأعمدة التي يقوم عليها سقف غرفة كبيرة، يجلس الأساتذة، ويجلس تلاميذهم بهيئة نصف حلقة حولهم، وكنت ترى حول أحد الأساتذة حلقة تتألف من شعوب مختلفة، وعدد تلاميذها أكثر ممن في الحلقات الأخرى، بينهم شباب أوروبيون من الذين يريدون دراسة اللغة العربية، هنا كان كرسي الشيخ مُحَمَّد عياد الطنطاوي، من أشهر العلماء الوطنيين، وأكثرهم إطلاعًا على الآداب الوطنية والتاريخ.

وقد أذاع شهرته في أوروبا مستشرقان كانا تليمذيه، يجلسان عند أعمدة الجامع الأزهر، ثم اشتهرا بمعرفة اللغة العربية واللهجات، أحدهما فولجنس فرنيل القنصل بمدينة جدة، وصاحب الرسائل عن تاريخ العرب

قبل الإسلام، والثاني غوستاف فيل أستاذ هيدلبرج السابق، ومترجم (ألف ليلة وليلة) ومؤلف (شعر العرب قبل مُحَمَّد)، والفضل لظهور البحثين عن جزيرة العرب قبل مُحَمَّد يرجع لمساعدة الشيخ للمؤلف، إذ إنه بغير مساعدته ما كان لبحوثهما أن تظهر كما يشهدان.

أستاذ الآداب الشرقية في الجامعة الروسية:

ومما يدل على روح الثورة عند الشيخ الطنطاوي أنه في طريقه إلى روسيا نزل في إيطاليا، ولم يتردد وهو الشيخ المعمم، في ذلك الوقت المبكر الذي تتجلى فيه محافظة الأزهر على العرف والتقاليد أن يزور دار الأوبرا مرتين، حيث شاهد في المرة الأولى رواية (السلطان مُحَمَّد)، وفي المرة الثانية رواية (العاشقين)، ويذكر الطنطاوي أنه لم يكن هناك معمم من المشاهدين سواه.

وكذلك نزل وهو في طريقه مدينة (كييف)، وحرص على أن يزور دير اللافرا وكنيسة القديسة صوفيا، وكنيسة القديس أندراوس، وحضر حفل استعراض الجيش يوم الأحد، وزار مدرسة البنات، وسمع العزف على البيانو، وفعل كل هذا وهو بعمامته وثيابه الأزهرية.

وشغل الشيخ الطنطاوي كرسي الآداب الشرقية في الجامعة الروسية، وكان يجمع بين الطرق النظرية والطرق العلمية، فمن جهة كان يدرس قواعد اللغة، ويشرح أمثال لقمان، ويقرأ قطعًا من مؤلفات تاريخية من مجموعة (بولدريف) ومقامات الحريري، ومن جهة أخرى كان يدرس الترجمة من اللغة الروسية إلى العربية، والخطوط الشرقية، وقرأ المخطوطات، والمحادثة باللغة العربية، وزاد على ذلك من سنة ١٨٥٥ تدريس تاريخ

العرب. وترى من المختصرات المحفوظة بين أوراقه أنه كان يشرح في محاضراته تاريخ الخلافة حتى عهد فتوحات المغول.

وحاز الشيخ الطنطاوي ألقابًا وأوسمة ومداليات وهدايا من القيصر وولي عهده، وصادف في روسيا تقديرًا وانتباهًا، وإن الإعجاب به كان يتملك كل من يلتقي به من الواقفين على حقائق الأمور. وعلى الرغم من النشاط الموصول الذي كان يبذله الطنطاوي في التدريس والحوار والرحلة، فقد ألف مجموعة قيمة من الكتب. ألف في النحو والصرف، والفلك والجبر، والميراث والحساب، والعقائد والتاريخ، والبلاغة والشعر والعروض، والتوحيد، كما نظم الشعر، وكتب الرسائل وكتب القصص، ووضع القواميس.

ولقد استفاد من الشيخ الطنطاوي طائفة كبيرة من المستشرقين، أمثال نقولا موخين، وفرين فرانيل، وبيرون رفيل، وغيرهم من الفرنسيين والألمان والروس. والذي يزور مقبرة التتر في قرية (فولكوفا) الروسية يجد فيها قبر الشيخ مُحَمَّد عياد الطنطاوي المصري الأزهري، الذي كانت حياته صورة من صور الثورات الفكرية الملحوظة في تاريخ الأزهر الطويل.

الدعوة لفتح باب الاجتهاد:

ثم جاءت في تاريخ الأزهر ثورة (جمال الذين الأفغاني) موقظ الشرق الإسلامي من سباته. لقد ولد جمال الدين الأفغاني في سنة ١٢٥٤هـ، ودرس في أفغانستان، وحصل جملة من العلوم فيها الطب والتشريح والفنون الحربية، ثم درس في الهند حيث حصل فيها العلوم العصرية وتعلم اللغة الإنجليزية مع التركية والفارسية. وجاء إلى مصر سنة ١٢٨٦هـ، وكان

في شرح شبابه، فأيقظ سبات الأزهر، ودعا إلى فتح باب الاجتهاد في الدين، ولقي في سبيل دعوته أهوالًا من الأعداء والأولياء، وعلى سبيل المثال كان الخديو حكم مصر، وكان يقول للأفغاني: "أنت موضع آمالي في مصر أيها السيد"، ولكن الخديو انقلب على جمال الدين بسبب السعايات الأجنبية بينهما، وكانت النتيجة هي نفي جمال الدين من مصر، بعد أن بذر في محيط علماء الأزهر بذور ثورة فكرية واجتماعية واسعة النطاق. وأصدر جمال الدين مع تليمذه وصديقه الشيخ مُحَمَّد عبده مجلة (العروة الوثقى)، التي كانت أعظم مجلة إسلامية نهز العالم الإسلامي هزًا عنيفًا.

ثم جاء الأستاذ الإمام الشيخ مُحَمَّد عبده فحمل مشعل الإصلاح والثورة الفكرية في الأزهر، بعد أن ضاق بنظام الأزهر منذ شبابه، وأراد إصلاح الإدارة، وإصلاح التدريس، وتغيير الكتب، واستطاع أن يحقق الأمور التالية:

١- إنشاء مجلس إدارة للأزهر سنة ١٣١٢هـ.

٢- ضبط مرتبات العلماء وطريقة توزيعها.

٣- ربط المعاهد الدينية في مصر بالجامع الأزهر.

٤- إصلاح نظام التدريس.

٥- وضع نظم للامتحانات.

٦- إصدار طائفة من القوانين للإصلاح.

ولقد قال الشيخ مُحَمَّد عبده: "إني بذرت في الأزهر بذرًا إما أن ينبت ويثمر، ويؤتي أكله المغذي للروح والعقل، فيحيا به الأزهر حياة جديدة،

وإما أن يقضي الله على هذا المكان قضاءه الأخير". وعاد الأستاذ الإمام فقال: "إنني ألقيت في الأزهر مشكاة لا تنطفئ، إن لم تلتهب اليوم أو غدًا، فستلتهب في ثلاثين عامًا، وستكون ضرامًا".

وقد حورب الشيخ مُحَمَّد عبده في ثورته الفكرية حربًا لا هوادة فيها، وتفاصيل ثورته كثيرة واسعة، تكفلت ببيانها مصادر ومراجع كثيرة، ولقد عنيت بالإشارة إلى ذلك في كتابي (مدرسة الأستاذ الإمام)، وكتابي (رشيد رضا صاحب المنار).

ثم جاءت ثورة فكرية أخرى في عهد الشيخ مُحَمَّد مصطفى المراغي، وهو من تلاميذ الشيخ مُحَمَّد عبده، وقد دعا المراغي إلى محاربة الجمود في الأزهر، وإلى صلة الأزهريين بالمجتمع، وإلى التجديد في التدريس والتأليف، وإلى ربط الدين بالحياة، ووضع في سنة ١٩٢٨ مذكراته التي توضح ملامح ثورته الفكرية في الأزهر، وفيها يقول:

"يجب أن يدرس القرآن دراسة جيدة، وأن تدرس السنة دراسة جيدة، وأن يفهما على وفق ما تتطلبه اللغة العربية – فقهها وآدابها – من المعاني، وعلى وفق قواعد العلم الصحيحة، وأن يبتعد في تفسيرهما عن كل ما أظهر العلم بطلانه، وعن كل ما لا يتفق وقواعد اللغة العربية.

يجب أن تهذب العقائد والعبادات، وتنقى مما جد فيها وابتدع، وتهذب العادات الإسلامية بحيث تتفق وقواعد الإسلام الصحيحة. يجب أن يدرس الفقه الإسلامي دراسة حرة خالية من التعصب لمذهب، وأن تدرس قواعده مرتبطة بأصولها من الأدلة، وأن تكون الغاية من هذه الدراسة عدم المساس بالأحكام المنصوص عليها في الكتاب والسنة

والأحكام المجمع عليها، والنظر في الأحكام الاجتهادية لجعلها ملائمة للعصور والأمكنة والعرف وأمزجة الأمم المختلفة، كما كان يفعل السلف من الفقهاء.

يجب أن تدرس أصول المذاهب في العالم قديمها وحديثها، وكل المسائل العلمية في النظام الشمسي والمواليد الثلاثة، مما يتوقف عليه فهم القرآن في أول الآيات التي أشارت إلى ذلك.

يجب أن تدرس اللغة العربية دراسة جيدة كما درسها الأسلاف، وأن يضاف إلى هذه الدراسة دراسة أخرى على النحو الحديث في بحث اللغات وآدابها.

يجب أن توجد كتب قيمة في جميع فروع العلوم الدينية واللغوية على طريقة التأليف الحديثة، وأن تكون الدراسة جامعة بين الطرق القديمة – في عصور الإسلام الزاهرة – والطرق الحديثة المعروفة الآن عند علماء التربية. وعلى الجملة يجب أن يحافظ على جوهر الدين وكل ما هو قطعي فيه محافظة تامة، وأن تهذب الأساليب، ويهذب كل ما حدث بالاجتهاد، بحيث لا يبقى منه إلا ما هو صحيح من جهة الدليل، وكل ما هو موافق لمصلحة العباد".

رصيد الثورات الأزهرية:

إن في تاريخ الأزهر الطويل العريض عشرات وعشرات من الثورات الفكرية، وقد ذكرت طائفة منها، دون أن أدخل في التفاصيل أو إصدار الأحكام على هذه الثورات، فقد تكون هنا بعض الملاحظ، وقد تكون هناك بعض المآخذ، وقد تكون هنالك بعض العيوب، وتبيان ذلك على

وجهه الكامل الشامل جهد واسع تضيق به ظروف الزمان والمكان، ومن حق كل ثورة من هذه الثورات أن تنال حقها المستقل من التحليل والتمحيص، ولعل ذلك يتيسر لهذا القلم أو ذاك، وعلى الله قصد السبيل.